الفصل الثامن

الاسهامات المنهجية
لإميل دوركيم

المحتويات

مقدمة

أولا : علم الاجتماع ، نطاقه ومهمته الأساسية

ثانيا : الواقعة الاجتماعية ، ملامحها الرئيسية .

ثالثا : ادراك الواقعة الاجتماعية ، أبعاد المدخل الموضوعى .

رابعا : الحتمية الاجتماعية ، طبيعتها وأبعادها .

مقدمة :

كان منطقيا أن يتأثر البناء المنهجى عند إميل دوركيم بالاتجاهات النظرية التى تفاعل معها من ناحية . وأن يسلم هذا البناء ذاته الى أسلوب معين فى فهم الواقع الاجتماعى من ناحية ثانية . بيد ان الحقيقة الأساسية التى نريد تأكيدها ، تتمثل فى امكانية اعتبار المنهجية الدوركيمية استمراراً للعناصر المنهجية الكائنة فى الفكر الوضعى ، التى نقلت فى أغلبها – مع بعض التعديل بما يلائم الواقع الاجتماعى – عن منهجية العلوم الطبيعية التى ازدهرت فى عصر التنوير وبدأت تحقق انجازات واضحة .

ويستوجب تحديد البناء المنهجى للنظرية الدوركيمية تحديد مجموعة من المقولات الأساسية سواء فيما يتعلق بتحديد مهمة الاجتماع ، أو فيما يتعلق بتحديد طبيعة الواقعة الاجتماعية ، أو بتحديد ملامح المدخل المنهجى لادراك هذه الواقعة . بيد أنه لتحديد المقولات الأساسية لمدخله المنهجى فإنه ينبغى أن نأخذ فى الاعتبار مجموعة الاعتبارات التالية .

١ – أن منهجية إميل دوركيم فى طبيعتها العامة تميل الى الطابع الوضعى ، حيث استخدام ذات المناهج والأدوات التى تستخدمها العلوم الطبيعية ، باعتبار التماثل بين الظاهرة الاجتماعية والظاهرة الطبيعية . وذلك استنتاجاً من خضوعها لعامل واحد وقوانين واحدة . وفى هذا الصدد نجد أن دوركيم يذهب إلى أنه ينبغى أن يتوقف علم الاجتماع عن أن يكون أحد فروع الفلسفة العامة (١١٢) . هذا بالاضافة الى تأكيده على ضرورة أن يكون له منطقه الخاص بالبرهنة ، فعالم الاجتماع ينبغى أن يسلك مسلكا عقليا شبيها بالمسلك الذى ينتهجه كل من عالم الطبيعة والكيمياء والفسيولوجيا (١١٣) وهو مايعنى اهتمامه بالتناول التحليلى لمعطيات البحث على غرار العلوم الطبيعية (١١٤) .

٢ – خضع الاطار الدوركيمى لتعديلات نظرية عديدة أثناء حركته التاريخية . اذ يؤكد بارسونز أن هناك تطورا حدث للنظرية الدوركيمية يمكن تشخيصه بشكل أفضل على أنه انتقال من موقف فلسفى« وضعى الى موقف مثالى أكثر تحددا (١١٥) . فبينما هو أثناء صياغته لتقسيم العمل الاجتماعى كان أكثر اقترابا من الموقف الوضعى فيما يتعلق بالعنصر المعيارى فى النسق وفى بناء التفاعل ومعاملته كعنصر متشئ ، أو كأحد عناصر الموقف الذى له قهره على الانسان من الخارج ، نجده يتحرك الى موقف مثالى ،

وبخاصة فى كتابه الأشكال الأساسية للحياة الدينية (١١٦) . حيث يجعل للضمير أو العقل الجمعى دورا معياريا ، فهو وان تشكل عن التفاعل إلا أنه يمارس حتمية عليه . وهو لايتكلم فى موقف الانسان من الخارج فقط عن طريق الجزاءات وانما من الداخل أيضا . حيث الالتزام والتكيف من داخل الفرد مع ماهو معيارى وموضوعى خارجه (١١٧) . ونعرض فى الفقرات التالية لمقولات البناء المنهجى عند إميل دوركيم .

أولا : علم الاجتماع ، نطاقه ومهمته الأساسية

تتسق نظرة دوركيم الى طبيعة العلم ، والعلم الاجتماعى ، ودوره فى الحياة الغربية المعاصرة مع تراث حركة تحرير العقل الأوربى . حيث يؤكد دوركيم ان العلم – من بين كل عناصر الحضارة – يعتبر العنصر الوحيد الذى يمكن فى ظل ظروف معينة – أن يمثل طابعا أخلاقيا . ومن ثم فالمجتمعات تميل بدرجة أكثر وأكثر لأن تنظر الى العلم كواجب على الفرد أن ينمى ذكاءه به عن طريق تعلم الحقائق العلمية التى تأكدت فعلا . فكل فرد منا مفروض عليه ألا يكون جاهلا . وانه لكى يستمر المجتمع تحت ظروف ملائمة . فان الذكاء الموجه بالعلم ينبغى أن يقوم بدور فى الحياة الجمعية (١١٨) .

ولقد بدأ اهتمام دوركيم بنشأة علم الاجتماع وأهميته – الى جانب تأثره فى ذلك بالوضعية السان سيمونية والكونتية – خلال أطروحته للدكتوراه عن منتسكيو التى نشرت عام ١٨٩٢ . اذ نجد ان اهتمامه لم يكن مركزا على هذا الفيلسوف البارز ، كما كان ينبغى . وانما على شروط وطبيعة نشأة العلم الاجتماعى الفعال . اذ نجده قد اختار منتسيكو موضوعا لبحثه . لاعتقاده انه بالرغم من نقائص عمل هذا الفيلسوف (روح القانون) الذى نشر فى عام ١٧٤٨ فانه أوضح بمالا يدع مجالا للشك أنه من الممكن قيام علم للمجتمع (١١٩) .

وقد حاول دوركيم بدءا من نقطة البداية هذه ان يؤسس علما اجتماعيا . باعتبار أ أى نظام عقلى يستحق أن يكون علما اذا كان لع مجاله المحدد للاستكشاف . فالعلم يهتم بالحقائق والموضوعات . ومن ثم فاذا لم تكن للعلم مادته المحددة التى يصفها ويفسرها ، فانه يصبح فى حالة خواء . ومن ثم فانه قبل أن نبدأ فى تأسيس وجود العلم الاجتماعى ينبغى تبين مادة محددة لموضوع بحثه (١٢٠) .

ويؤكد دوركيم فى مقدمة دراسته عن الانتحار ان علم الاجتماع مازال فى مرحلة فطامه ، ومن ثم فهو بدلا من أن يلقى الضوء على أجراء محددة للواقع الاجتماعى . نجده يفضل التعميميات البراقة (١٢١) . غير ان هذا العلم بمعنى مايهتم بدراسة الانسان فى المجتمع ، وان كانت مقولة ماهو اجتماعى لم تتحدد بعد . فما هى اذن الخصائص المميزة لفئة الظواهر التى يمكن تحديدها بأنها اجتماعية ، ومن ثم يمكن فصلها عن فئات أخرى من الظواهر كالظواهر البيلوجية والسيكولوجية ، نجده يحدد أهم خواصها بالخارجية والقهر (١٢٢) . وبعد هذا التحديد السلبى يحاول ايجابيا أن يحدد مادة علم الاجتماع باعلانه أن موضع هذا العلم يتمثل فى دراسة حقائق أو وقائع الحياة الأخلاقية Facts of Moral life وان هدفه الأساسى يتمثل فى تناول هذه الوقائع وفقا لمنهج العلوم الوضعية (١٢٣) . هذا الى جانب أنه يؤكد على ضرورة اتسام هذا العلم بمجموعة الخواص الأساسية التالية :

١ - أنه من الضرورى أن يتعامل مع النماذج والفئات وليس مع المفردات . فليس هناك علم للمفرد . وهو يختلف فى ذلك مع الفلاسفة الألمان من أمثال فندلباند Windelband وركرت Rickert فى تأكيدهما أن كل معطاة انسانية ينبغى أن تمثل شيئا فريدا ، ومن ثم فلا وجود لنماذج المعطيات أو فئاتها فى العالم الاجتماعى . فى اطار ذلك يستنتج دوركيم أنه ليس هناك بديل لذلك سوى أن نتناول هذه المعطيات كما يتناولها الشعراء وكتاب الرواية ، ثم يؤكد ان العلم لايمكن ان يقتصر على وصف المفردات ، وانما عليه أن يصف النماذج فقط ، فاذا لم نصنف المجتمعات ، فانها ستظل ممتنعة على الوصف العلمى (١٢٤) .

٢ - أما الخاصية الثانية التى تميز العلم وتجعله يختلف عن الفن ، فتتمثل فى قابلية موضوع بحثه للخضوع للمبادئ العامة أو كما يصوغها دوركيم الخضوع للقوانين . فاذا لم تكن المجتمعات خاضعة للقوانين ، فلن يمكن قيام علم اجتماعى . وفضلا عن ذلك ، فما دام هناك مبدأ قائل بالترابط الشامل والقوى بالنسبة لكل ظواهر الكون ومادامت قد اختبرت صحته فى نطاقات أخرى وثبت صدقه ، فانه بلا شك سوف يكون صحيحا بالنسبة للمجتمعات البشرية التى تعتبر جزءا من الطبيعة (١٢٥) . ويتضح من هذا المبدأ تأثير كل من سان سيمون وكونت اللذين ذهبا الى القول باستمرارية اتصال العالم الطبيعى بالعالم الاجتماعى . بيد أن ذلك لايحرم العالم الاجتماعى من استقلاله وتميزه

الخاص مثلما هى الحال بالنسبة للعالم البيلوجى والسيكلوجى حيث لهما استقلالهما النسبى الخاص .

٣ – ان علم الاجتماع من وجهة نظر دوركيم ينبغى أن لا يؤمن بالمصادفة ، هذا بالاضافة الى ضرورة الاستغناء عن فكرة الارادة والاختيار البشرى . ذلك لايعنى ان المصادفات لاتقع فى التاريخ ، أو أن هناك انتفاء تماما للارادة أو الحرية البشرية فى الفعل . ولهذا يعلن دوركيم أنه ليس هناك علم للمصادفات ، حيث ان وظيفة العلم الاجتماعى ينبغى أن تكون التركيز على الاطرادات فى السلوك البشرى الذى لايمكن أن تحكمه المصادفة . غير انه اذا أراد البعض رد الفعل الاجتماعى للارادة والاختيار البشرى ، فان هذا يكون علما للنفس وليس علما للاجتماع . ومن ثم فاذا أردنا للعلم الاجتماعى ان يتأسس ، فانه ينبغى افتراض ان المجتمعات لها طبيعة معينة لاتنتج مباشرة عن طبيعة العناصر والترتيبات المكونة لها ، والتى تعتبر مصدرا للظواهر الاجتماعية (١٢٦) .

٤ – انه ينبغى أن يكون لهذا العلم منهج ، فليس يكفى على مايذهب دوركيم أن يكون للعلم مادة بحثية . وانما لكى يحدد أو نؤسس الاطرادات والنماذج والقوانين المتعلقة بالمجتمع . فانه من الضرورى أن نمتلك منهجا ملائما لطبيعة الموضوعات موضع الدراسة ، وأيضا لأهداف العلم ومتطلباته (١٢٧) . ولاينبغى أن نتخيل أن مثل هذا المنهج سوف يظهر تلقائيا للعمل فى اللحظة التى نطالب فيها العلم . ولكن على العكس فامتلاك المنهج عادة مايتحقق بعد جهاد طويل .

٥ – يؤكد دوركيم أيضا على ضرورة أن يدرك العلم الاجتماعى ويتناول مادة بحثه بشكل غير مباشر ، وليس مباشرا كما تفعل العلوم الأخرى . فهو يؤكد أننا اذا أردنا دراسة الظواهر الأخلاقية باسلوب موضوعى . فان علينا ان نستبدل الحقيقة الداخلية للوعى بمؤشر خارجى يرمز لها . ومن ثم ندرس الأولى فى ضوء الثانية . وعلى هذا النحو تظهر الظواهر الاجتماعية ذاتها للعالم الاجتماعى عن طريق (مؤشرات محسوسة) (١٢٨) .

٦ – انه فيما يتعلق بفهم التفاعل الاجتماعى نجده يتخذ مسلكا مختلفا . فعلى خلاف معاصرية من أمثال سينسر وتارد الذين حاولوا تفسير أساليب السلوك الجمعى عن

طريق حالات أو عناصر تكمن فى الوعى الفردى . فى اطار ذلك يؤكد دوركيم بلا ملل أن مادة الحياة الاجتماعية لايمكن تفسيرها بواسطة عوامل سيكولوجية خالصة ، أعنى بواسطة الوعى الفردى الذى يبدو بالنسبة لنا أكثر وضوحا .. اذ تختلف الجماعة فى تكوينها عن الفرد ومن ثم فالأشياء المؤثرة فيها تكون من طبيعة مختلفة . فاذا أردنا فهم الأسلوب الذى يفكر به المجتمع فى ذاته وبيئته ، فان على الباحث أن يهتم بطبيعة المجتمع وليس الأفراد . ويذهب دوركيم الى أن الرموز التى تشير الى التصورات تختلف وفقا لنموذج المجتمع (١٢٩) .

وفى أعقاب فراغه من تحديد الخواص الأساسية للعلم نجده يحاول تقديم فهم أساسى للوظيفة الأساسية التى يمكن أن يلعبها العلم فيما يتعلق بطبيعة الفعل الاجتماعى .

فمنذ البداية نجد أن دوركيم من خلال كراهيته للفكر النقدى الذى تمثله التصورات الراديكالية فى عصره ، يؤكد على أن للعلم وظيفة ايجابية فيما يتعلق بالنظام الاجتماعى . اذ يرى أن التعميمات الامبيريقية التى نصل اليها من خلال علم الاجتماع يمكن أن تستخدم لتأسيس نسق أخلاقى يتلاءم مع الواقع الاجتماعى . أعن أنه علم يمكن أن يساعدنافى عملية التأسيس الاجتماعى على أساس علمى (وقد كان ذلك هدفا أساسيا بالنسبة للفكر الأوربى فى القرن التاسع عشر) (١٣٠) . ولأداء ذلك يؤكد دوركيم على ضرورة ان يفهم العلم المجتمع لكى يمارس فاعليته فى اطاره ، بالنظر الى ذلك نجده ينتقد جناحا كاملا من الفكر الذى ساد القرن التاسع عشر . حيث يذهب الى أن معظم هؤلاء كان لهم هدف واحد – سواء أغفلوا أو أعطوه قدرا محددا من الانتباه – هو أن يغيروا ويحولوا الواقع بشكل كامل ليس ان يعرفوه . انهم لايهتمون حقيقة بالماضى أو الحاضر ، وانما ينظرون الى المستقبل فقط ، غير ان العلم الذى يبحث عن المستقبل فقط يفتقد امكان أن يكون له موضوع بحث محدد ، ومن ثم فهو ليس علما وانما هو فن (١٣١) . بذلك يحدد دوركيم وظيفة علم الاجتماع بأنها عادة تأسيس النظام الاجتماعى عن طريق تأسيس بنائه الأخلاقى دون محاولة لتغيير هذا النظام تغييرا شاملا يتلاءم مع تصور مستقبلى لابد للحاضر أن يتطابق معه .

ثم يحاول دوركيم أن يقترب من المجتمع الصناعى فيؤكد ان العلم يعتبر السلطة الوحيدة التى يسلم بها لمجتمع لمعاد تنظيمه . وان العلم هو الذى يؤسس التوافق التلقائى بين كافة الوظائف الاجتماعية الممكنة . حيث يوضح العلم – من بين أشياء كثيرة – ماهية الأفكار

الأخلاقية الأكثر تلاؤماً مع الظروف الصناعية الجديدة (١٣٢) . من هنا نجد أن اسهام العلم فيما يتعلق ببناء التفاعل هو أولا بتأسيس العنصر الأخلاقى المتمثل فى مجموعة الأفكار الأخلاقية وثانيا بصياغة تآزر بين غايات الأفعال الفردية ، وغاياتها على المستوى الاجتماعى الشامل بما يتلاءم وظروف المجتمع المحيط . بل اننا نجد أن دوركيم تحت وطأة التأثير الوضعى يحدد صراحة دور العلم فى اطار التفاعل الاجتماعى ، بتأكيده ان العلم يمكن أن يساعد على تحديد الغايات والوسائل بالمثل ويذهب الى أنه اذا لم يحدد العلم أفضل الأهداف بالنسبة لنا ، فكيف يتسنى له أن يخبرنا حول أفضل الوسائل لتحقيقها ؟ . واذا لم يرشدنا العلم فى تحديد الغايات النهائية ، فانه يصبح لاحول له فيما يتعلق بتحديد الوسائل (١٣٣) .

ويكشف تحليل المشروع الدوركيمى ان القواعد العلمية لدوركيم مصممة بالتكل الذى تؤدى به خلق علم اجتماع يرى فى روح النظام الشرط الأساسى للحياة الانسانية بينما هو مؤسس فى ذات الوقت على أسس من الحق والصدق (١٣٤) . مادام علم الاجتماع لم يحرر نفسه من كافة التحيزات بالمعنى السياسى فانه من المحتمل ألا يكون صدقا أو حقا ، ومن ثم لايكون هناك علم للاجتماع (١٣٥) . وفى اطار محاولة الابقاء على أدائية العلم على مستوى وظيفته الحرفية دون محاولة جعله علما شعبيا أو أيديولوجيا كما تذهب الى ذلك بعض اتجاهات الراديكالية هذا بالاضافة الى التأكيد على الوظيفة ذات الطابع العملى للعلم ، وهى وضيفة ميزت الموقف الدوركيمى من العلم .

تبقى بعد ذلك نقطتان فيما يتعلق بطبيعة مادة علم الاجتماع أو بطبيعة تناول الباحث فى علم الاجتماع لمادته . أما فيما يتعلق بتحديد مادة علم الاجتماع ، فيذهب دوركيم الى أنه يمكن أن يكون هناك وجود لعلم الاجتماع الى المدى الذى تكون له مادة بحثه المتميزة عن مادة بحث العلوم الأخرى ، وهو يقصد بخصة علمى النفس والأحياء ، حيث أنه اذا تأسست تفسيرات السلوك الاجتماعى بالنظر الى معطيات سيكلولوجية أو بيولوجية أساساً ، فانه لن تكون هناك حاجة لعلم آخر غير علم النفس والبيلوجيا مادام فهم السلوك الأنسانى يقع فى مجال اهتمامها (١٣٦) .

ذلك يفرض تساؤلاً بتعلق بحقيقة وجود معطيات اجتماعية خالصة . واذا كان الأمر على هذا النحو ، فما هى خصائصها المميزة ؟ . ذلك ان مسألة مادة علم الاجتماع من المسائل التى لازمت تطور المشروع الدوركيمى . فهو لم يتعرض لهذه المسائل إلا بشكل هامشى فى كتابه عن

مونتسكيو [١٣٧] غير أنه حينما تصدى لمؤلفه تقسيم العمل الاجتماعى حاول الاقتراب من هذه القضية حيث أعلن فى هذا المؤلف ان موضوع العلم ينبغى أن يكون (حقائق الحياة الأخلاقية) وأن هدفه الأساسى تناولها وفقا لمنهج العلوم الوضعية . وبعد فترة وجيزة يؤكد لنا دوركيم ان الحقائق الأخلاقية هى عبارة عن ظواهر ككل الظواهر الأخرى تتكون من قواعد السلوك ويمكن التعرف عليها ببعض الخصائص المميزة ، غير أنه فى هذا المؤلف أيضا ، يحاول أن يحدد لنا ماهى خصائصها ، غير أننا نعتقد أنه قد بدأ التفكير فيها خلال مؤلفه (تقسيم العمل فى المجتمع) . وأنه سجل نتاج هذا التفكير حينما أوضح خصائصها فى مؤلفه المنهجى قواعد المنهة فى علم الاجتماع [١٣٨] . فاذا اتفقنا على أن علم الاجتماع يهتم بدراسة الانسان فى المجتمع ومن ثم مجموعة الظواهر الاجتماعية التى قد تنشأ والتى عادة ماتكون غير محددة المعالم ، فانه يكون من المطلوب تحديد هذه المعالم بحيث تنفصل الظواهر الاجتماعية عن البيلوجية أو النفسية [١٣٩].

ثم يذهب الى أن مادة علم الإجتماع هى عبارة عن ظواهر الجماعات والعادات والتقاليد والقوانين والقيم والعناصر الأخرى للنظام الاجتماعى [١٣٩] ويحاول بعد ذلك تحديد خواص الظواهر الاجتماعية التى تشكل معطيات لعلم الاجتمع بأنها خارجية ، أى توجد خارج شعور الفرد ، ومن ثم فهى تقهره على ضروب من التفكير والسلوك والشعور ، ولذلك فليس باستطاعة الفرد أن يغير طبيعتها كما يحلو له ، هذا بالاضافة الى أنها مستقلة عن الظواهر البيلوجية والنفسية ، وأنها تحتاج الى أن يتم تناولها موضوعيا [١٤٠] . حيث أن لها وجودها المادى المتشئ .

أما المسألة الثانية التى تتعلق بطبيعة اقتراب الباحث من مادة بحثه ، لتحدد موضوعية اقترابه من الحقيقة ، حيث يتحقق ذلك اذا اهتم الباحث بالاعتبارات الأساسية التالية :

١- انه لكى يحقق الموضوعية فان عليه أن يفصل فصلا حادا بين مشاعر الباحث وتحيزاته من ناحية ، وبين الواقع أو الحقيقة الاجتماعية من ناحية أخرى ، ولايعنى ذلك دخوله الى الواقع بعقل خال تماما ، بل يعنى ان عليه ان يتبنى اتجاها شعوريا محايدا نحو ماينتوى بحثه [١٤١] . ذلك ان الباحث الاجتماعى يضم بداخله هويتان : الأولى من حيث كونه باحثا فهو مطالب بأخلاق ومحكات علمية ، والثانية من حيث كونه انسانا فهو مطالب بالاختيار لأداء دور اجتماعى محدد . ومن هنا نجد أن دوركيم يفارق بين الموقفين

فهو يؤكد ان اتجاه العالم هو الذى يميز الملاحظ أساسا ، حيث يهتم بملاحظة ظواهر معينة ، حقيقة ان المنهج للعلمى الحديث أصبح يهتم بالتأكيد على أن الباحث أكثر من مرآة ذات دور سلبى خالص بالنظر الى العالم الخارجى ، وان البحث العلمى ذاته عبارة عن عملية فعل ، فهو سعى وراء المعرفة غير المجردة ولكن المعرفة الواقعية التى تتعلق بأشياء محددة ، غير أن عملية المعرفة هذه تصبح انتقائية متأثرة بالانساق النظرية التى تمثل اقتناعات الباحث . بيد أنه حتى فى اطار هذه الحدود الانتقائية فان موضوعية الباحث تترسخ بالنظر الى المفاهيم والتأسيسات النظرية التى تيسر له الادراك الموضوعى للواقع .

وفى مواجهة موقف الباحث نجد موقف الانسان الذى يحمل توجيها أخلاقيا نحو الواقع ، ومن ثم فهو ايجابى تجاهه . ويؤكد دوركيم ان جوهر الأمر فى موقف الانسان يتمثل فى دوره الابداعى وغايات سلوكه . حيث حرية الاختيار أساسية بالنسبة للتوجيه الأخلاقى . وبذلك فان العنصر الابداعى لغايات السلوك لايشكل - كما اتضح لنا - مجموعة من الحقائق الكائنة فى العالم الخارجى بالنسبة للانسان ، ومن ثم فان أى محاولة لارجاع عناصر السلوك المعيارية لمقولات المظرية العلمية وحدها تنتهى فقط بالقضاء كلية على العنصر الابداعى . ومن ثم يصبح السلوك مجرد عملية تكيف مع مجموعة من الظروف . ومن ثم يصبح التمييز حادا بين العلم والأخلاق (١٤٢) .

٢ - وفى اطار الاعتبار الثانى يطلب دوركيم من الباحث ضرورة التخلى عن أية أفكار مسبقة من الواقع فى دراسته له . وهناك فارق بين ان يمتلك الباحث مفاهيم تحليلية تساعده على استكشاف عناصر الواقع الأساسية ، وبين محاولة الباحث صياغة الواقع وفقا لنظرية معينة . فى اطار ذلك نجده يؤكد (أن مثل هذه النظريات لاتعبر عن الظواهر حيث لايستطيع الباحث معرفتها بهذه السرعة وانما تعبر عن الفكرة التى كونها واضعوا هذه النظريات عن الظواهر قبل الشروع فى دراستها) (١٤٣) . فادراك الحقيقة لايتم بالنظر الى بناء نظرى مسبق وانما ينبغى ادراكها بالنظر الى النموذج الاجتماعى الذى تنتمى اليه . اذ أن من المستحيل أن يصف الباحث ظاهرة دون ارجاعها الى نموذج اجتماعى معين (١٤٤) . وبذلك يؤكد دوركيم ان فهم الواقعة انما ينبغى أن يتم بالنظر الى الموقف الكلى أو الاطار البنائى الذى تشكل جزئية فيه .

٣ – واذا كان الاعتبار الأول يتعلق بضرورة انفصال الباحث بينما يتعلق الثانى بادراكه الواقعة بالنظر الى نموذجها البنائى أو الموقف المتضمن لها ، وليس بالنظر الى اطار نظرى مسبق . فاننا نجد أن دوركيم يركز فى الاعتبار الثالث على طبيعة تناوله للواقعة ذاتها ، اذ يؤكد أنه من الضرورى دراسة الظواهر الاجتماعية كأشياء ، كمادة علينا ان نلاحظها وهذه نقطة بدء العلم (١٤٥) . وذلك يعنى انفصال ذواتنا عنها ودراستها من الخارج دون ارتباط عاطفى بها . وفى اطار ذلك يؤكد دوركيم أيضا أن فهم داخل الظاهرة وتفاعلاتها الداخلية يتم بالنظر الى مؤشرات خارجية ، لأن الظواهر الاجتماعية تظهر نفسها للباحث من خلال مؤشرات محسوسة (١٤٦) . وهو ماطبقه دوركيم فى دراسته لظاهرة الانتحار التى تناولها عن طريق ادراك مؤشراتها الخارجية .

ثانيا : الواقعة الاجتماعية ، خصائصها الرئيسية

حينما يعرف دوركيم الظاهرة الاجتماعية بأنها ضرب من السلوك يعمم المجتمع ويباشر على الفرد قهرا من خارجه ، وله وجوده الخاص المستقل عن الصور التى يتشكل بها فى كل شعور فردى على حدة (١٤٧) ، فان ذلك يطرح فى الذهن المقابلة النظرية الحادة بين الوجود الاجتماعى والوجود الفردى ، وأولوية كل منها بالنسبة للآخر من وجهة نظر المشروع الدوركيمى .

وتكشف النظرة الى هذا التعريف عن اختيار دوركيم لموقف الأولوية الاجتماعية والمجتمعية . غير انه لحداثة علم الاجتماع فى عصره ، فان الظاهرة الاجتماعية على النحو التى عرفت به ، مازالت تحتاج الى نظرة متفحصة ، تستكشف ان هناك وجودا اجتماعيا لأنماط سلوكية خارج الفرد ليس له إلا أن يخضع لها ملتزما بقهرها له .

وتشكل ضروب السلوك فى مجموعها والأفكار التى تحكمها موقفا اجتماعيا يتضمن السلوك الفردى ، حيث يتفاعل البشر فى اطاره خاضعين لميكانيزماته . من هنا فتعريف الظاهرة الاجتماعية يتطابق وتحديد السياق الاجتماعى الذى يتفاعل فى اطاره الانسان ، ويتطابق والسلوك الاجتماعى ، دون السلوك الفردى أو التصرف act، مادام لهذه الظاهرة وجود متميز وميكانيزمات خاصة تعلم وفقا لها مستقلة عن كل ماهو فردى . ذلك يفرض علينا

ضرورة التعرف على الخصائص الأساسية للظواهر الاجتماعية بالمعنى الدوركيمى ، والمواقف الاجتماعية أو السلوكيات الاجتماعية وهو المعنى أو المفاهيم الحديثة لذات المضامين .

وفى محاولة لاستكشاف خصائص السلوك الاجتماعى باعتباره الوحدة المصغرة للظاهرة الاجتماعية – عند إميل دوركيم – فان ذلك يستوجب منا استكشاف هذه الخصائص فى اطار ثلاثة نطاقات رئيسية . أولها يتعلق بسببيه السلوك ، وثانيها يتعلق بمجموعة الخصائص التى تمثل التجسد الواقعى للسلوك ، أما الثالية فترتبط بغائية السلوك والهدف الذى يؤديه فى اطار السياق .

وتوضح محاولة استكشاف الخصائص المتعلقة بسببية السلوك أو طبيعة العوامل الدافعة اليه ان سلوك الانسان فى المجتمع لايقع مصادفة – على مايذهب دوركيم – وليس تعبيرا تاما عن الحرية الفردية . فالمصادفة ينبغى القضاء عليها من نطاق العلم ، ومقولات الارادة والاختيار الفردى ينبغى الاستغناء عنها (١٤٨) . غير انه اذا لم يكن السلوك تعبيرا عن الارادة الفردية التى دفعت اليه ، اذا فى أى اتجاه نبحث عن العوامل المسببة له . فى اطار ذلك نجد أن دوركيم فى دراسته للانتحار ، وتقسيم العمل الاجتماعى بالاضافة الى مؤلفه قواعد المنهج فى علم الاجتماع ، يناقش فاعلية ثلاثة عوامل أساسية هى العوامل البيلوجية ، ثم العوامل النفسية ثم العوامل الاجتماعية ، هذا بالاضافة الى العوامل البيئية المنطلقة أساسا من البيئة المادية للانسان .

وفيما يتعلق بالعوامل البيلوجية نجد أن إميل دوركيم يؤكد أن القول بفاعلية العوامل البيلوجية يجعل سلوك الفرد البشرى محكوما بالولادة مثل الكائن العضوى ، أو بواسطة تكوين الخلايا الذى ينحد اليه من أسلافه (١٤٩) . فالحيوان تحت تأثير الحتمية البيلوجية التى تحكمه يحاول استيعاب الحقائق الاجتماعية بالنسبة لهذه الحتمية ، بحيث تتحول لديه فى النهاية الى حقائق بيلوجية . بينما على العكس من ذلك نجد الانسان وبخاصة فى المجتمعات العليا أو الراقية حيث تستبدل الأسباب العضوية بأسباب اجتماعية ، وحيث يتحول الكائن العضوى الى كائن حى (١٥٠) .

بيد أن ذلك لايعنى انتفاء أية فاعلية للعوامل البيلوجية كعوامل دافعة للسلوك . حقيقة ان دوركيم أكد فيما يتعلق بالانسان ان أصوله الوراثية أو البيلوجية لاتحدد المهنة أو العمل الرئيسى

الذى ينبغى أن يقوم به الفرد ، حيث أن تكوينه الجينى لايفرض عليه بشكل مسبق ان يمارس فاعليته من خلال دور محدد فقط ، وبذلك يجعله عاجزا عن القيام بأى دور آخر ، وانما يستقبل الفرد من الوراثة مجرد استعدادات عامة فقط ، طبيعة يمكن تشكيلها ومن الممكن ان تتخذ أشكالا مختلفة (١٥١) . ثم يذهب الى انه اذا أعمل الانسان أيا من قدراته فى انجاز أفعال معينة على حساب اغفال أخرى ، فان الأخيرة سوف تضعف تدريجيا . وسوف يحيى الانسان وينشط القدرات التى أعملها فقط (١٥٢) . بيد ان ذلك ليس اعادة للقول بانطلاق السلوك بالنظر الى خلفيت بيلوجية ، وانما يكون بالنظر الى التخصص فى اطار تقسيم العمل ، حيث البعد الاجتماعى هو الذى فرض ذلك .

فى اطار ذلك يؤكد تالكوت بارسونز ان إميل دوركيم وان أغفل صراحة فاعلية الدوافع البيلوجية كأحدى خواص السلوك الاجتماعى لديه ، فانه قد عاد رغماً عنه وأكد الدور الفعال لعامل السكان ، وهو عامل بيلوجى ، كدافع لعديد من الظواهر أو الوقائع المجتمعية الشاملة (١٥٣) . بيد أن هذا الادعاء مردود عليه ، لأن دوركيم حينما أكد فاعلية عامل السكان كدافع لوقائع معينة لم يكن ذلك بالنظر الى السكان كتكوين بيلوجى ، ولكن بالنظر الى الكثافة الاجتماعية التى تعتبر الكثافة السكانية أحد عناصرها ، وبذلك فان دوركيم ظل دائما محافظا على موقفه الرافض لفاعلية العوامل البيلوجية كعوامل دافعة للواقعة أو الظاهرة الاجتماعية .

وتشكل العوامل النفسية كعوامل دافعة للسلوك رفضا دوركيميا آخر ، وبالرغم من أن دوركيم لم يرفض علم النفس كنظام عقلى بالاضافة الى أنه لم يقلل من شأن التفسير السيكولوجى بالنسبة لبعض الظواهر ، الى جانب أنه لم يشكك فى أن الانسان عبارة عن كائن مفكر وحساس ذى وعى . غير أن مايرفضه دوركيم هى تلك الجهود التى تحاول أن تستنتج الظواهر الاجتماعية من حالات ليست اجتماعية ، أعنى من الحالات العقلية أو الجسمية التى قد توجد فى الفرد وحده .. ثم يذهب الى انه رغم ضرورةالوعى الفردى ، غير انه بذاته ليس كافيا لتفسير دافعية السلوك . ومن ثم فاذا نحن قد بدأنا بالفرد على هذا النحو ، فانه لن يكون هناك امكان لادر ك مايمكن أن يوجد بالنظر الى تجمع من الأفراد . أو بالنظر الى بناءات الوظائف والسلطات والأدوار والمعايير المستنتجة اجتماعيا ، تلك التى لها وجودها الحقيقى خارج الفرد (١٥٤) .

وبعبارة أخرى يوجد بين علم النفس وعلم الاجتماع نفس انفصال الاستمرارية التى بين علوم البيلوجيا من ناحية وبين العلوم الفسيو- كيميائية من ناحية أخرى . استنتاجا من ذلك ففى كل لحظة يتم فيها تفسير الظاهرة الاجتماعية مباشرة بواسطة الظاهرة السيكلوجية ، فان ذلك التفسير سوف يكون ولا شك زائفا (١٥٥) . ويعنى ذلك ان دوركيم يرفض ان تكون دافعية السلوك من داخل الانسان حيث بناؤه البيلوجى أو السيكلوجى . بل شكلت الأخيرة كنطاق لدافعية السلوك محور خلافه الأساسى مع المدرسة النفعية حيث انجز دراسته للانتحار لكى يؤكد أن الظاهرة اجتماعية وان بدت فردية فى طابعها الخارجى ، إلا أن مايدفع اليها عوامل اجتماعية أساسا وليست سيكولوجية .

اذن ماهى طبيعة العوامل الدافعة للسلوك ؟ الموقف الذى يختاره دوركيم هو أن مصدر السلوك لدى الانسان يكمن فى سياقه ، بل أننا نجد أن دوركيم يصل الى حد القول بأنه من الممكن أن يندفع الأفراد المسالمون كل المسالمة الى القيام بأفعال همجية قد لا ترضاها فرديتهم متى وجدوا فى جماعة . يحدث ذلك فى الانفجارات الاجتماعية أو فى حركات الرأى العام التى تحدث بلا انقطاع (١٥٦) . اذن فالبعد الاجتماعى يكون بارزا مادام السلوك البشرى يتحدد بواسطة الضمير الجمعى وليس الضمير الفردى . ويتحدد الضمير الجمعى على أنه كيان من العواطف والمعتقدات المشتركة بين أعضاء المجتمع (١٥٧) . هذا الكيان الذى ينتقل الينا من خلال عمليتى التطبيع والتربية ، والذى يفرض على الطفل أساليب للرؤية والشعور والسلوك . تلك التى لايمكن أن يصل اليها بشكل تلقائى .. ومن ثم فمن طبيعة كل سياق اجتماعى ان يحاول صياغة أفراده وفقا لصورته ، وفى اطار هذه العملية يكون الآباء والمعلمون مجرد وسائط أو ممثلين لهذا السياق (١٥٨) . ويحاول دوركيم تأكيد ذلك بطرحه لبعض الأمثلة ، اذ نجده يؤكد أن السلوك الاجرامى يكتسب هويته لأنه يؤدى حالات محددة وقوية للضمير الجمعى (١٥٩) ، وفى هذا الاطار يذهب دوركيم الى القول بأنه لاينبغى أن نؤكد ان سلوكا مايصدم الضمير المشترك لأنه سلوك اجرامى ، ولكنه يعتبر سلوكا اجراميا لأنه يصدم الضمير الجمعى (١٦٠) . ذلك يعنى ان مشروعية السلوك أو عدم مشروعيته تكتسب من السياق الاجتماعى ، فهو الاطار المرجعى لدى دوركيم لتحديد هوية السلوك الاجتماعى الذى يأتيه الانسان ويعتبر الانتحار هو المثال الثانى الذى يستشهد من خلاله دوركيم على الدافعية الاجتماعية للسلوك كخاصية أساسية له . اذا يؤكد دوركيم ان الانتحار وهو الذى يبدو واقعة فردية تدفع اليها عوامل اجتماعية أساسا .

فالانتحار – الايثارى الملزم – يأتيه الشخص اذا أحس بأنه عالة على الجماعة أو يأتيه الفرد وفاء للجمـ عة اذا كان اختياريا . أما الانتحار الايثارى الحاد acute فيأتيه الفرد لإحساسه بأن ثمة خـطرا يتهـدد حياة الجماعة أو أن الخطر قد وقع فعلا ومن ثم تصبح الحياة بلا قيمة (١٦١) . بل ان انتحار الأنومى يأتيه الشخص حينما يتهدم السياق الاجتماعى وينهار ويصبح عاجزا عن امداد السلوك بدافعيته . ذلك يوضح ارتفاع معدلات الانتحار فى فترات التغير المفاجئة فى حياة الطبقة كالارتفاع أو الانخفاض المفاجئ ، حيث يكون الشخص منقطع الأوصال بالسياق الاجتماعى المؤسس داخله . كذا يعانى المطلقون الذين انهارت سياقاتهم الاجتماعية العائلية من الانتحار أيضا . ويرجع ذلك الى ضعف السياق الاجتماعى أو انهياره لأى من الأسباب ، وهو مايعنى الغاء أية قيود على المعيشة ، ومن ثم يضع البشر فى حالة من عدم التحدد Flux بذلك يخلق فراغا اجتماعيا وشخصا يؤدى الى انهيار توجيه السلوك (١٦٢) ومن ثم يتخذ السلوك أيا من أشكال الانحراف .

السؤال الذى يطرح نفسه حينئذ هو : لماذا كان السياق الاجتماعى منطلق دافعية السلوك ، وهنا ندخل الى المجموعة الثانية من خواص السلوك ، وهى تلك التى تتعلق بدينامية السلوك فى اطار تجسده فى الواقع الخارجى للانسان . فى اطار ذلك يكتسب السلوك مجموعةمن الخواص تصله بالموقف الاجتماعى المحتوى له . هذه الخصائص يمكن ايجازها فى ثلاثة خواص رئيسية . هى خاصية الخارجية ، حيث السلوك من حيث شروطه وغاياته ووسائله ودينامية انجازه من خارج الانسان . ثم خاصية الالزام حيث الفرد ملتزم بانجاز السلوك بالنظر الى عناصره المتاحة فى الموقف ، ثم القهر حيث الانسان مقهور أو مفروض عليه انجازه وإلا هناك من الوسائل مما يؤدى أعمالها الى ترسيخ فاعلية هذا القهر .

أما فيما يتعلق بخاصية الخارجية ، فيؤكد دوركيم ان ضروب الشعور أو السلوك التى يأتيها الانسان ليست خارجة عنه فقط وانما لها وطأتها القاهرة بالنسبة له أيضا .. اذ تعتبر ضروب السلوك أو الظاهرة حقيقة خارجة عنى لأنى لست أنا الذى الزمت نفسى بها ، وانما تلقيتها من خلال التربية . فأفكارى وتقاليد مهنتى وضروب سلوكها موجودة ومستقلة عن طريق استخدامى لها . فهى كلها ضروب من السلوك والشعور تمتاز بخاصية أنها توجد خارج شعور الأفراد (١٦٣) .

ويعتبر دوركيم خاصية الخارجية هذه من أكثر الخواص المميزة للحقائق الاجتماعية [١٦٤] . حيث ينظر الى أية واقعة على أنها خارجية بالنسبة للانسان وليس الملاحظ . وتتصل خاصية الخارجية هذه باعتبار دوركيم الحقائق الاجتماعية كأشياء . حيث لمفهوم الشئ هنا معنيان ، فالى جانب ان حقائق الظواهر الاجتماعية التى ندرسها تعتبر جزءا من العالم الخارجى ، أى من الطبيعة بالنسبة للملاحظ الاجتماعى ، بل ان السلوك البشرى ينبغى ان يدرك بالنظر الى هذه العوامل والقوى التى تعتبر أشياء بالنسبة لفرد الذى يؤدى سلوكا معينا ، كما لو أنها حقائق صلبة Stuborn لايمكن تعديلها لكى تتوافق مع عواطفه ورغباته الخاصة . ومن ثم فعلى نقيض حاجات المذهب النفى ، التى هى تلقائية وذات طابع ذاتى ، فان الأشياء Choses ليست تلقائية بل معطاه أو مفروضة Given ، ليست ذاتية ولكنها خارجية [١٦٥] .

ذلك يعنى ان خارجية اظاهرة تعنى مسألتين : الأولى ان السلوك من حيث دافعيته وأدائيته فى الموقف ووظيفته فى السياق يخضع لديناميات خارجية تصل الى حد اعتبار الانسان مجرد وسيلة لانجاز سلوك يشبع حاجة مجتمعية . ومن ثم فهو مفروض على الفرد من الخارج . أما المعنى الثانى للخارجية فيعنى ان العناصر الأساسية للسلوك من حيث القيم أو المعايير التى تحكمة أو من حيث الوسائل التى تستخدم فى انجازه ، هى كلها مكونات خارج الفرد موجودة كأشياء فى الموقف الاجتماعى وعلى الانسان ان يتكيف معها وليس فى امكانه تكييفها لاشباع حاجاته الخاصة .

ويعتبر الالزام الخاصية الثانية للسلوك أو الواقعة الاجتماعية فى اصار الموقف الاجتماعى . ونعنى بها ان يخضع الانسان لالزام أخلاقى وهو ينجز سلوكا اجتماعيا محددا . ويتضح ذلك من تعريف دوركيم للحقائق الاجتماعية بأنها قواعد للسلوك ذات جزاء . ذلك لأن السلوك الأخلاقى ليس بالضبط الطريقة المعتادة للفعل ، ولكنه قبل كل شئ أسلوب ملزم لأداء الفعل ، ومن ثم فهو ليس متروكا لهوى الحكم الارادى للفرد [١٦٦] . ويؤكد دوركيم ان فكرة الالزام التى أغفلها الاتجاه النفعى قد تأكدت منذ أكدها الفيلسوف كانت . غير ان كانت قصر الالزام على رغبة الانسان فى ان يتصرف أخلاقيا ، بينما الحقيقة ان الفرد الى جانب رغبته فى ان يتصرف أخلاقيا يتصرف أساسا على هذا النحو لأن القاعدة الأخلاقية تفرض هذا التصرف [١٦٧] ، وتظهر فكرة الالزام أو الواجب من وجود الآخر فى موقف الانسان غير ان

الفرد أو الآخر ليس هدف السلوك الأخلاقى من وجهة نظر دوركيم ولكنه الانسان الجمعى أو المجتمع ذاته . فاذا اعتبرنا ان الالزام ينبثق من نسق موجود من الالتزامات والواجبات ، فان المجتمع ينبغى أن يكون انسان أو فاعلا أخلاقيا متميزا كيفيا عن الأفراد . فى هذا العالم الذى نعرفه وندركه يكون للتجمع فقط واقعية أخلاقية أكثر ثراء وتعقيدا مما للفرد (١٦٨) .

غير ان الالزام لا يتحقق فقط عن طريق خضوع الانسان للقاعدة الأخلاقية وانما يوضح دوركيم ان السلوك الاجتماعى لايتوقف عند كونه يتطلب جهود التضحية والحرمان من جانبنا فقط ، لأن القوة الجمعية ليست خارجية عنا كلية ، ومن ثم فهى لاتؤدى فعلها علينا كلية من الخارج ، ولكن لأن المجتمع لايمكن ان يوجد إلا فى ومن خلال الوعى الفردى ، ومن ثم فان هذه القوة الجمعية ينبغى ان تتخللنا أو تنظم دينامياتنا ، الى أن تصبح جزءا مكملا لوجودنا ، ومن ثم تصبح سامية ومقدسة (١٦٩) . اذن ففكرة الالزام كما يراها دوركيم تتأسس أساسا من خارج الفرد ، لكنها تتسلل الى داخله لتجعل الانسان مجرد وحدة موضوعية فى النسيج الاجتماعى يلتزم بأداء سلوك يشبع حاجات الانسان الجمعى ، الذى هو نتاج التفاعل مع الآخر فى الموقف الاجتماعى ، فهو يلتزم بهذا الانجاز من خارجه ومن داخله أيضا . وتتجسد فكرة الالزام فى خاصية القهر ، وهى الخاصية الثالثة للظاهرة الاجتماعية فى اطار السياق الاجتماعى . ويقصد دوركيم بفكرة القهر ان ضروب السلوك أو التفكير الاجتماعية أشياء حقيقة توجد خارج ضمائر الأفراد الذين يجبرون على الخضوع لها فى لحظة من لحظات حياتهم (١٧٠) . ويؤكد دوركيم ان السلوك الأخلاقى له جانبان : الانجذاب الايجابى ، أى الانجذاب نحو مثال أو مجموعة من المثل ، وهو مايشكل أحد الجوانب ، غير أن القواعد الأخلاقية لها خواص الالزام والقهر أيضا ، مادام السعى لتحقيق الغايات الأخلاقية ليس محتما دائما ان يستند الى كفاءة المثل . ومن ثم فكلا جانبى القواعد الأخلاقية ضرورى لفاعليتها (١٧١) . اذن فأحد جوانب التسليم بالحقيقة الاجتماعية يرجع الى قوة القهر الخارجى التى فى قدرتها ان تمارسه على الأفراد . ويمكن التعرف على وجود هذه القوة أما عن طريق وجود بعض الجزاءات المحددة أو بالنظر الى المقاومة التى تظهرها ضد أى جهد فردى يميل الى تركها (١٧٢) .

ويذهب دوركيم الى انه حينما ينجز الأفراد أفعالا معينة فانهم لايبتكرونها وانما تشكل هذه الأفعال جزءا من نسق الالتزامات الأخلاقية التى يكون متداخلا enmeshed فيه مع

الآخرين ، وبينما يكون باستطاعة الفرد أن يهزأ Flout بمثل هذه الالتزامات ، غير انه اذا فعل ذلك يشعر بقوتها ، ومن ثم يؤكد طبيعتها القهرية بالخضوع لها (فحتى حينما أحرر نفسي من هذه القواعد وانتهكها بنجاح ، فانه يفرض عليّ صراعها . وحينما اتجاوزها في النهاية فانها تجعل قوتها القاهرة مشعورا بها بدرجة طاغية عن طريق المقاومة التي تقدمها) [٢٧٣] . ويؤكد دوركيم انه مادمنا قد جعلنا القهر هو المؤشر الخارجي الذي يمكن أن تتميز به الحقائق الاجتماعية ، وتعرف به ، عن حقائق النفس الفردية . فانه وفقا لرأينا يصبح القهر الفيزيقي أساسيا بالنسبة للحياة الاجتماعية . وفي الحقيقة فاننا لانرى فيه أكثر من التعبير المادي الصريح عن حقيقة داخلية دفينة ، ذات طابع مثالي بشكل كامل ، تلك هي السلطة الأخلاقية [١٧٤] . اذن فالسلوك في علاقته بموقفه الاجتماعي يكتسب ثلاث خواص أساسية هي الخارجية والالزام والقهر ، بالاضافة الى خاصيته الأولى وهي ذات طابع اجتماعي أساسا على نحو ماأوضحنا .

يبقى بعد ذلك ان نوضح الخاصية الأخيرة للسلوك وهي تلك المتعلقة بغاياته . في اطار ذلك يؤكد دوركيم ان معنى الموضوعات لايشتق من خصائص أساسية فيها وانما من كونها رموزا لاظهارات جمعية للمجتمع [١٧٥] . اذن فسبب السلوك لايكمن في ذاته أو في ذات الانسان ، وانما في السياق الاجتماعي . ومن ثم فتفسير وجوده ينبغي أن يكون بالنظر الى الوظيفة التي يؤديها أو الغاية التي يهدف الى تحقيقها . في اطار ذلك يؤكد دوركيم انه حينما نحاول انجاز تفسير للظاهرة الاجتماعية ، فالى جانب اننا نحاول تحديد السبب الأساسي وراءها ، فاننا ينبغي أن نتعرف على الوظيفة التي تنجزها [١٧٦] . واذا كنا قد قلنا أن العامل المحتم لوجود حقيقة اجتماعية ينبغي أن نبحث عنه في الحقائق الاجتماعية السابقة عليها ، فاننا نذهب الى أننا اذا كنا بصدد تحديد الوظيفة التي تؤديها الحقيقة الاجتماعية فاننا يجب أن نبحث عنها بالنظر الى غاية اجتماعية . ثم يؤكد انه في اطار علم الاجتماع ، وليس علم النفس الفردي ، ينبغي أن يكون هناك اهتمام بالوظائف الاجتماعية ، ومن ثم فينبغي أن نكون على وعي بأن الحقائق الاجتماعية لها سياقات ووظائف اجتماعية . فاذا لم تحدد الوظيفة التي تؤديها عادة أو تقليدا في اطار النظام الاجتماعي الأشمل فاننا لانكون قد قدمنا تفسيرا فعالا [١٧٧] .

ومادام السلوك الاجتماعي وسيلة لغاية اجتماعية تدفع اليها أسبابا اجتماعية من خلال

الانسان . هنا نجد أن دوركيم يرفض الثنائية النفعية بين الوسائل والغايات مؤكدا أن كل وسيلة من وجهة نظر أخرى غاية . فما دمت تستخدمها فانك ترغبها مثلما ترغب الغاية التى تستخدم هذه الوسيلة لتحقيقها (١٧٨) . اذن فكل ماهو موجود فى الواقع الاجتماعى ، الانسان والسلوك والوسائل والشروط الاجتماعية ، كلها وسائل تهدف الى تحقيق وظيفة أساسية يفرض انجازها المجتمع ، وهو الذات الأسمى ، بذلك تكون خصائص السلوك الاجتماعى من وجهة النظر الدوركيمية ذات طابع اجتماعى أساسا ، من حيث الدافعية ، أو الشروط والخصائص والعلاقات الموقفية ، أو من حيث الغاية التى ينجزها هذا السلوك ، بحيث يتحقق كل ذلك برغبة وارادة من الانسان ، وأيضا بشكل حتمى ورغما عنه .

ثالثا : ادراك الواقعية الاجتماعية ، أبعاد المدخل الموضوعى

يعتبر اصرار دوركيم على مقولة الموضوعية فى دراسة الواقعة الاجتماعية انعكاسا لمسألتين ، الأولى أنه من الضروى التصدى لمثل هذه المفاهيم فى المراحل التى عادة ماتصاحب نشأة علم جديد ينبغى عليه تناول متغيراته بالبحث والدراسة . وثانية انه من المنطقى أن يثور حوار يتعلق بمادة هذا العلم ، ثم بأسلوب ادراك طبيعة هذه المادة . هل ندركها بذات ادراك العلوم الطبيعية لمادتها أم اننا اذا كنا بازاء علم انسانى فينبغى أن نؤسس ادراكا ملائما للظاهرة الأنسانية . واذا كانت الموضوعية أو الذاتية أحد عناصر هذا المنهج ، فمنطقيا أن يتعرض لها دوركيم فى تناوله للمستويات المنهجية بمشروعه النظرى .

ويؤكد دوركيم أننا اذا كنا نريد دراسة الظواهر الاجتماعية بالأسلوب الوضعى فاننا ينبغى أن نستبدل الحقيقة الداخلية للوعى بمؤشر خارجى يشير اليها ، بحيث يمكننا دراستها فى ضوء هذه المؤشرات . وبذلك نجد ان كل الظواهر الاجتماعية تبرز نفسها للعالم الاجتماعى من خلال مؤشراتها المحسوسة (١٧٩) . وتعنى دراسة الظاهرة الاجتماعية من خلال مؤشراتها ادراكها كموضوع فى الواقع الخارجى ومن ثم دراسته مثلما يتجلى لنا من خلال مؤشراته أو اظهاراته الأساسية ، فى اطار ذلك فنحن لانوافق ارفنج زايتلن حينما يؤكد ان اصرار دوركيم على الموضوعية كان استمرارا للموقف الكونتى ، حيث كان دوركيم يهدف من اعلانه الى تحقيق مسألتين . أولا انه بتأكيده على موضوعية وحقيقية النظام القائم ، فان الاتجاهات نحو نفيه تصبح عبثية ولامعنى لها ، وغير حقيقية ، وثانيا فان القول بالموضوعية يعتبر مبالغة فى درجة

استقلال الحقائق الاجتماعية عن الارادة الفردية (١٨٠) . ومن ثم ترفض هذه الدراسة محاولة ارفنج زايتلن نقد الموقف الدوركيمى من خلال ادراك القضية العلمية من خلال متضمنات أيديولوجية ، وهو مايعنى خطأ معرفيا واضحا .

ويتأسس الادراك الموضوعى لدى دوركيم من خلال ثلاثة اطارات أساسية الاول يتعلق بطبيعة الموضوعية بالنظر الى مصدر الواقعية ، أما الثانى فيتعلق بالخصائص الموضوعية للواقعة الاجتماعية أما الثالث فيتعلق بمحكات الموضوعية بالنظر الى الباحث القائم بتناول الواقعة ، أو الذى يحاول ادراكها .

أما فيما يتعلق بطبيعة الموضوعية بالنظر الى مصدر الواقعة فيتضح من أننا اذا افترضنا ان الادراك أما أن يكون بالنظر الى الانسان المشارك فيها ، ومن ثم يكون ذلك ادراكا ذاتيا لها ، أما اذا افترضنا ان ادراك الحقيقة يتم من خلال تشكلها بالسياق الاجتماعى الذى يتضمنها فان ذلك يكون ادراكا موضوعيا من الخارج لأنه لا علاقة له بذاتية الانسان المدركة . بالنظر الى ذلك نجد ان دوركيم يفضل ادراك الواقعية كما يحددها السياق أو كما تظهر من خلاله . فالسياق لديه هو أساس الموضوعية ، أو هو الحقيقة الكلية الثابتة التى تتجاوز الحقيقة الفردية وتسمو عليها ، فالحقيقة الاجتماعية أكثر تعقيدا ودواما من الأولى لأنها متضمنة لها (١٨١) .

ويبرهن دوركيم على موضوعية ماهو اجتماعى بتأكيده انه مادام قد بقى عبر وقائما لوقت طويل ، فان ذلك ماكان ليتحقق له لو لم يكن على صلة بجوهر الأشياء . ومن ثم فهو يربط الصدق بالحياة الجمعية . اذ تبرز تجربة الحياة الاجتماعية للانسان ان هناك اظهارات تتجاوز الفردية ، ومن ثم فعليه ان يأخذها فى الاعتبار . وان الحياة فى المجتمع تجعل الانسان على وعى بوجود نطاق عقلى يشارك فيه ، وهو أعظم منه بحيث يصبح ذلك نطاقا أساسيا للصدق (١٨٢) . يؤدى تجاوز الوجود الاجتماعى لمفرداته وتكويناته الجزئية الى جعله مصدرا لمعنى كل الأشياء . فمعنى الأشياء لايشتق من خصائص أساسية فيها ، ولكن من كونها رموزا للاظهارات الجمعية للمجتمع . فمعنى الظاهرة وقيمتها تعتبر صفات اجتماعية وليست خصائص موضوعية للظاهرة المادية (١٨٣) . اذن فصفات الأشياء وخصائصها ليست ملامح كامنة بها ، ولا تخلعها عليها ذوات البشر فى المجال الاجتماعى . اذن فالمجتمع موضوع شامل وهو أصل كل الموضوعية ، فى اطار ذلك نجد ان دوركيم يطرح رأيا حاسما فى حل مشكلة ابستمولوجية

ظهرت فى الحوار بين أصحاب النزعة الامبيريقية empiricists من ناحية وأصحاب النزعة القبلية apriorists من ناحية أخرى ، اذ يؤكد دوركيم ان مقولات الزمان والمكان وكل المقولات الأخرى هى مقولات اجتماعية ، وانها ليست منبثقة عن عقول البشر بالمعنى الكانتى Kantian sense ولكنها معطاة بواسطة البيئة الاجتماعية (١٨٤) .

ويذهب دوركيم الى أن مقولات ادراك الموضوع تأتى اليه من السياق الاجتماعى . فالموضوع يقع فى اطار زمانى وله احلال مكانى ، وتربطه بالظاهرة الأخرى علاقات سببية فى اطار وجود كلى يتضمنه . هنا نجد أن إميل دوركيم يؤكد ان مقولات الزمان والمكان والسببية ، والكلية مقولات لها أصلها الاجتماعى ، بالاضافة الى مقولة القوة . أما فيما يتعلق بالأخيرة (مقولة القوة) نجد ان المجتمع هو الذى يصنف كائناته الى ماهو اسمى وماهو أدنى ، فهو الذى يقسم كائناته الى سادة آمرين أو خدم مطيعين ، وان المجتمع هو الذى يخلع على الأقوياء والسادة القوة الفريدة singular power التى تجعل الأمر مؤثرا والتى تخلق القوة (١٨٥) . فمن خلال وطأة المجتمع على العقل البدائى ، وهو التأثير الذى يتضح من خلال التطبيع الذى يمتد عبر أجيال عديدة من الخبرة البدائية للجنس البشرى . نجد ان ثقافة الانسان ومن ثم طبيعته الاجتماعية الثقافية قد اكسبت فكرة القوة Force ، القوة المجردة التى أدركت باعتبارات وقتية واجتماعية لوقت طويل . وبالنسبة لفكرة السببية فنجد ان لها هى الأخرى أصولها الاجتماعية . اذ يؤكد دوركيم ان فكرة العلاقة السببية تتضمن فكرة الكفاءة الخاصة بالقوى الفعالة . فالسبب هو شئ ما قادر على انتاج التغيير الاجتماعى ، أو هو القوة Mana المنتشرة والتى تكشف عن نفسها فى كل نطاقات الطبيعة ، فهى التى تسبب هبوب الرياح ونمو النباتات وتكاثر الحيوان (١٨٦) .

وينطبق نفس الأمر على مقولات الزمان والمكان وما الى ذلك . ويؤكد دوركيم ان فكرة الزمان قد نشأت من خلال ملاحظة الانسان البدائى لمجموعة الممارسات المطردة لما هو مقدس ، أو تلك الطقوسيات المتعلقة بمنح الحياة . اذ أدى هذا الانتظام . والاطراد الأساسى وفقا للايقاعات القمرية Lumar ، والشمسية Solar الى خلق أفكار الدورية ، والدوام ، والمؤقت . أما فيما يتعلق بتصور المكان فقد تم الايحاء به بواسطة ممارسات السكنى المعتادة للقبيلة ، وهل هى على شكل المربع أم المستطيل ، أو اتخذت الشكل الدائرى لسكنى والحياة الثقافية بوجه عام ، فى اصار ذلك يؤكد لنا دوركيم ، ان سكان استراليا الأصليين يعيشون فى معسكرات

دائرية ، مركزية فى طبيعتها ، ومن ثم فكل أفكارهم عن المكان بالمثل ذات طبيعة مركزية ودائرية [١٨٧] . اذن فالموجود الخارجى للسياق الاجتماعى متموضع بذاته ، يستوعب موضوعاته المكونة ومنها الفرد البشرى أو الاجتماعى ، ويفرض عليه مقولات التحدد والادراك المشتقة منه وليست من ذاته . ومن ثم فمعنى الأشياء من خارجها وليست من داخلها أو مخلوعة عليها من ذات الانسان .

وفى أعقاب ذلك ينتقل بنا دوركيم الى المستوى الثانى من الموضوعية وهو الخاص بخصائص الواقعة الاجتماعية كما رآها دوركيم ، حيث نجد ان مجموعة الخصائص التى تميز مادة الدراسة فى علم الاجتماع وهى الظاهرة أو الواقعة الاجتماعية ، التى تدرسها كأشياء لها وجود خارجى مستقل عن الارادة الفردية ، غير أنها تظل فى وجودها تكتسب موضوعيتها من انتسابها لسياق اجتماعى محدد . وفيما يتعلق بوجود الظاهرة أو الواقعة الاجتماعية كأشياء فينطلق من ضرورة تناولها كأشياء ، باعتبارها المادة الوحيدة التى يمكن اتخاذها موضوعا لعلم الاجتماع . فالشئ هو حقيقة مايقع تحت ملاحظتنا ، أو هو مايقدم نفسه لنا ، أو هو بالأحرى الذى يفرض نفسه علينا فرضا [١٨٨] . ويؤكد دوركيم أنه ليس معنى أن دراسة الظواهر الاجتماعية كأشياء ان نقول ان هذه الظواهر ذات طابع مادى ، ولكننا نقصد من ذلك أنها ذات وجود بارز ، ومن ثم فهى جديرة بأن توصف بأنها (أشياء) كالظواهر الطبيعية تماما [١٨٩] . ومن ثم فلا ينبغى اعتبارها مجرد امتدادات للذوات الفردية أو هى ظلال يضفيها وجود الأفراد ، باعتبار ان القول بالظواهر ، والوقائع الاجتماعية كأشياء ، يعنى امتلاكها لخاصيتى الخارجية والموضوعية ، ومن ثم فكلى نفهمها علميا ينبغى ان يتم ذلك بالنظر لى ذاتها نفسها [١٩٠] . فوجود الشئ فى ذاته يعنى أن ادراكه موضوعيا ينبغى أن يتم بالنظر الى ذاته وليس بالنظر الى ذات الانسان أو الملاحظ .

وتعتبر الخارجية هى الخاصية الثانية للواقعة الاجتماعية . وتعنى الخارجية ان تكون الواقعة سواء كانت ظاهرة ، أو سلوكا اجتماعيا خارجة على شعورى بها . نتلقاها عن طريق التربية . وتعنى الخارجية أيضا أسبقية الظاهرة أو الواقعة فى وجودها على الوجود الفردى نستخدمها ونمارسها ، وهى مع ذلك مستقلة عنا ، تواجهنا بقوتها القاهرة اذ نحن قد حاولنا الخروج عليها [١٩١] . ويعنى الوجود الخارجى للظاهرة ان ادراكها يتم بالتركيز عليها كما تفعل العلوم الطبيعية بالنسبة لمادتها . وهو مايفرض عليما دراستها من الخارج ، أى على أنها أشياء

خارجية لأنها لاتقع تحت ملاحظتنا إلا على هذه الكيفية (١٩٢) . ويرتبط بخارجية الظاهرة عموميتها ، أى شمولها لجميع مفردات النوع دون الاقتصار على ذات أى منها ، ومن ثم يكسبها هذا الشمول نوعا من التموضع الخارج عن ذواتهم الفردية . وتعنى خاصية الخارجية بالنسبة للسلوك انه محكوم بشرط الموقف وليس بارادة الانسان واختياره ، وان الانسان فى انجاز السلوك ما هو إلا جزء أو عنصر فى اطاره ، هذا بالاضافة الى انتفاء نطاق حرية الفرد وقدرته على الاختيار ، وان بدأ انه يفعل ذلك ظاهريا (١٩٣) .

وتعتبر النسبية احدى خواص الحقيقة الاجتماعية سلوكا كانت أم ظاهرة . ونعنى بذلك ان حقائق الوسط الاجتماعى لاتبدو منتظمة بالنظر الى مبدأ أو مجموعة من المبادئ المناظرة لقوانين العالم الفيزيقى . ومن ثم فمبادئ السلوك ليست عامة وانما هى خاصة بكل مجتمع أو نموذج اجتماعى كما يذهب دوركيم . وبذلك يصبح من المستحيل على أساس موضوعى وسوسيولوجى تجاوز النسبية . وهى تعنى ان ماهو حقيقى بالنسبة لمجتمع ما ليس كذلك بالنسبة لآخر ، فكل نموذج له تكوين أخلاقى خاص به ينبغى اكتشافه بالبحث الامبيريقى . هذا ويعتبر ظهور مبدأ نسبية النماذج الاجتماعية فى العلوم الاجتماعية من أكثر الاسهامات الايجابية أهمية . حيث هى تعنى القضاء على تصور العامل الواحد المفسر لكل الظواهر وأنماط السلوك (١٩٤) . وبإيجاز عام تطرح هذه الخصائص تصورا وضعيا موضوعيا للظواهر والسلوكيات الاجتماعية تيسر دراستها منعزلة عن التجسدات أو الذاتيات أو الإرادية الفردية بمعنى تناولها فى وجودها العينى البارز الذى يتكسب معناه بالنظر الى السياق الاجتماعى .

يبقى بعد ذلك ان نوضح ملامح الموضوعية المتعلقة بحالة اقتراب الباحث من ادراك الحقيقة . بداءة يؤكد دوركيم ان هناك مدخلين لادراك الحقيقة الواقعية التى هى السلوك الاجتماعى من وجهة نظر هذه الدراسة . بحيث ينفصل كل منهما عن الآخر ، ولكل منهما مشروعيته فى اطار النظرية العامة للعلم . أما المدخل الأول فهو المدخل العلمى ، وهو يمثل مدخل الباحث الملاحظ أساسا . حيث هو يهتم بظواهر معينة ، ومن الواضح ان المنهجية العلمية الحديثة أصبحت على درجة عالية من الكفاءة بحيث تيسر أن يكون الباحث العالم أكثر من ان يكون مجرد مرآة عاكسة للعالم الخارجى . اذ أن البحث العلمى فى ذاته عملية فعل ، وان السعى ليس وراء المعرفة المجردة ، ولكن من أجل معرفة معينة تتعلق بأشياء محددة . ومن ثم فهو عملية انتقائية بالنظر الى المعطيات . هذا الانتقاء محكوم كما هو واضح ، بواسطة بناء

الأنساق النظرية وبواسطة اعتبارات تتجاوز الاعتبارات العلمية . غير ان هدف العلم هو ان يقلل من العناصر التى لا تدخل فى تكوين الحقائق ذاتها . ويعتبر مفهوم الحقيقة بطبيعتها القهرية المقاومة لكل شئ باستثناء طبيعتها الأساسية بالنسبة للعلم . وبهذا المعنى يصبح توجه الباحث العلمى ، حسب طبيعة الحالة ، له طابعه السلبى .

أما المدخل الثانى فهو التوجه الأخلاقى الى الواقعة وهو توجه فعال وايجابى أساسا . حيث يكمن العنصر الجوهرى فى دور الانسان الخلاق ، وفى غاياته . وحرية الاختيار أساسية بالنسبة للأخلاق . وفضلا عن ذلك ان هذا العنصر الخلاق فيما يتعلق بالغايات ، لايشكل مجموعة من حقائق العالم الخارجى كما يراها الانسان . فى اطار ذلك يصبح السلوك مجرد تكيف ومجموعة الشروط الكائنة فى الموقف الاجتماعى (١٩٥) .

ومايختاره دوركيم بين العلم والأخلاق . هو التأكيد على ضرورة التناول العلمى . ولانجاز هذا التناول بشكل مثالى نجده يضع عدة قواعد على الباحث ان يتمثلها حتى يكون قادرا على الادراك الموضوعى للحقيقة موضع الاهتمام . من هذه القواعد ان يتحرر الباحث دائما من كل فكرة مسبقة عن السلوك (١٩٦) وهو هنا يريد ان يلغى الموقف العاطفى ذا الطبيعة الذاتية فى مواجهة ادراك الباحث لسلوك الانسان . هذا الى جانب التحديد المبدئى لهوية الواقعة موضع الدراسة من خلال تحديد عناصرها الأساسية . ومن ثم ادخال هذه الوقائع فى اطار طائفة قائمة بذاتها (١٩٧) . وهنا يكون تصنيف هذه الوقائع بالنظر الى عناصرها هى وليس بالنظر الى رؤية الباحث وذاتيته . أما القاعدة الثالثة التى ينبغى على الباحث ملاحظتها فهى ان عليه ان يتناول الظاهرة مستقلة عن تجسداتها الفردية (١٩٨) . وهو بذلك يهدف الى الغاء كل ما هو ذاتى عن الظاهرة حتى يتبدى وجودها كشئ موضوعى متميز .

ومثلما صاغ ماكس فيبر النماذج المثالية كوسيلة قياسية تيسر تحقيق درجة عالية من الموضوعية ، نجد دوركيم يقترح تأسيس مايمكن ان يسمى بالنموذج المتوسط . وهو يؤكد انه يمكن تشبيه هذا النموذج بشخصية ذهنية مجردة نصل الى تكوينها عن طريق الجمع بين أشد الخصائص النوعية عموما وبين أشد الصور انتشارا لدى أفراد النوع . فى اطار ذلك فان النموذج السليم للظاهرة هو الذى يتطابق والنموذج المتوسط ، وان أى انحراف عن مقاييس الصحة يعنى وجود ظاهرة معتة (١٩٩) . معنى ذلك اننا نلاحظ تأكيدا دوركيميا واضحا على

ضرورة الادراك الموضوعى للواقعة الاجتماعية ، أولا بادراك ان موضوعيتها تنبثق من السياق الاجتماعى أساسا ، لكونها تنجز هدفا أو غرضا لهذا السياق . وانها أثناء ذلك تتصف بمجموعة من الخصائص التى تؤكد وجودها الموضوعى المتموضع فى العالم الخارجى بعيدة عن ذات الانسان واراديته . ومن ثم فادراكها ينبغى أن يكون بالنظر الى توجيه علمى له قواعده الأساسية التى تيسر الادراك الموضوعى وليس بالنظر الى توجه أخلاقى يخلق لدى الانسان التزاما معياريا بعملية انجاز السلوك .

رابعا : الحتمية الاجتماعية ، اطار الادراك والفهم .

يشير القول بحتمية السلوك الى مرحلة عاشتها النظرية السوسيولوجية فى أحد أطوارها . حيث تباينت مختلف اتجاهاتها من حيث رؤيتها لطبيعة الحتمية وعواملها . وقد أوضحنا كيف أنها كانت حتمية اقتصادية عند ماركس . وكيف انها سوف تصبح حتمية ثقافية أو قيمية عند ماكس فيبر ، وكيف انها أصبحت حتمية اجتماعية ، أو مجتمعية عند إميل دوركيم ، أو سيكولوجية بيلوجية عند باريتو بذلك فانه أيا كانت طبيعة العامل الحتمى ، فان المقصود به ان هذا العامل يتحكم فى الظاهرة من حيث ثباتها وتغيرها . وان القول بالحتمية يشير فى مجمله الى مرحلة مختلفة من مراحل التفسير السوسيولوجى .

ويكشف المتتبع لظهور التفكير الدوركيمى وتطوره عن معايشته لانماط محددة من الحتمية . فقد عايش الحتمية البيلوجية التى قال بها دارون فى اطار علم البيلوجيا وسبنسر فى المجال الاجتماعى . والحتمية البيئية التى قالت بها الوضعية ورفعت لواءها المدرسة الجغرافية . ثم الحتمية الاقتصادية التى قللت بها الماركسية فى مواجهة هذه الحتميات نجد أن المشروع الدوركيمى يغفل تماما الحتمية الاقتصادية التى أعلى من شأنها ماركس ، بينما نجده يناقش بدرجة مركزة كلا من الحتمية البيلوجية والحتمية البيئية ، باعتبارها حتميات تنتمى الى الجناح الوضعى فى التفكير ، أو على الأقل التفكير العلمى ، بالاضافة الى علم البيلوجيا الذى كانت له سطوته فى هذه المرحلة (٢٠٠) .

وفى مناقشة إميل دوركيم للأسباب المحتمة للسلوك الانسانى نجده يحصرها فى ثلاث حتميات أساسية ، حينما يذهب الى القول باعتماد الانسان على بيئات ثلاث †Milieux أو أوساط هى الكائن العضوى Organism والعالم الخارجى external world ثم المجتمع So-

ciety . وفيما يتعلق بالبيئة الأولى وهى البيئة العضوية نجده يؤكد أن أهم عواملها الوراثة ، وتأثيرها لم يكن له اعتبار فى التقدم الانسانى ، فالكائن العضوى لم يتعدل فى تطوره تلقائيا ، وانما أجبر على ذلك بفعل عامل خارجى ، أما بالنسبة للعالم أو الوسط الفيزيقى فيؤكد أنه ظل كما هو منذ بداية التاريخ ، اذا نظرنا اليه بدون التغيرات ذات الأصل الاجتماعى التى حدثت فى اطاره . ومن ثم فليس هناك سوى المجتمع الذى قد يتغير ، وقد يكون هو القادر على تفسير التغيرات التى حدثت فى الطبيعة البشرية (٢٠١) .

ومن الناحية المنهجية يعتبر دوركيم البيئة أو الظروف الطبيعية عاملا أو متغيرا دائما ، ومن ثم يسقطه من حساب عوامل التفسير باعتبار ثبات فاعليته فى كافة مراحل التريخ . غير ان حواره الأساسى كان موجها نحو فاعلية العامل البيولوجى باعتباره العامل الذى ارتبط الى حد كبير بالمدرسة النفعية مقصد الهجوم الدوركيمى المباشر . حيث نظرت النفعية الى تحتيم السلوك بواسطة الحاجات الأساسية للانسان التى هى ذاتية وداخلية وتلقائية بالنظر اليه ، وهو ماجعلهم ينزعون عن السلوك حتميته الخارجية (٢٠٢) .

ويؤكد دوركيم انتفاء فاعلية الحتمية البيلوجية فى اطار العالم الانسانى بخلاف ترسخ فاعليتها فى اطار العالم الحيوانى . اذ يؤكد إنه فيما يتعلق بالمجتمعات البشرية ، فان الأفراد يتحولون وفقا للتغيرات التى تظهر فى الوحدات الاجتماعية وعلاقاتها . فالحيوان عادة مايخضع بشكل مباشر وكامل لوطأة تأثير البيئة الفيزيقية ، حيث يحدد تكوينه البيلوجى وجوده بشكل مسبق . أما الانسان ، فعلى العكس من ذلك ، يعتمد على الأسباب الاجتماعية . حقيقة ان الحيوانات قد تشكل مجتمعات غير انها لكونها محدودة فان حياتها المجمعية عادة ماتكون بسيطة ، وهى عادة ماتكون ساكنة stationary. لأن توازن مثل هذه المجتمعات الصغيرة يكون مستقرا بالضرورة . وهى تؤدى فاعليتها من خلال نسق من الغرائز والأفعال اللا ارادية المنعكسة ، حيث الوسائل التى تيسر تكيف الفرد بالبيئة الفيزيقية وليس الاجتماعية . هذا فى حين ان الأمر يختلف فيما يتعلق بالانسان ، لأن المجتمعات التى يؤسسها أكثر اتساعا ، وان أكثرها صغرا يعتبر أكثر اتساعا من معظم المجتمعات الحيوانية ، ولكونها أكثر تعقيدا فانها تتغير بدرجة أكثر ، ومن ثم يجعلها هذان العاملان لاتنجز بالأسلوب البيلوجى . بالاضافة الى ذلك هناك المعتقدات والممارسات المشتركة بين البشر ، تلك التى لا تعزى الى نسيج خلاياهم . وتظهر هذه الطبيعة بدرجة أكثر كلما تطورت كثافة الكتلة الاجتماعية . فكلما كان هناك بشرا

أكثر فى اطار المجتمع كانت لهم أفعالهم وردود أفعالهم كل بالنسبة للآخر ، وتجاوز نتاج الفاعل نطاق ماهو عضوى . ومن ثم يجد البشر أنفسهم تحت وطأة تأثير كاسح لمجموعة من الأسباب المفسرة ذاتها ، والتى يصبح دورها النسبى فى تشكيل الطبيعة البشرية أكثر اعتبارا (٢٠٣) . ثم يؤكد دوركيم انه اذا كانت الحتمية البيلوجية تؤدى دورا فعالا فى تشكيل أفعال الحيوانات ، فاننا نجد على العكس من ذلك فيما يتعلق بالانسان ، وبخاصة المجتمعات الانسانية العليا والراقية ، حيث تستبدل الأسباب الاجتماعية بالأسباب العضوية ، فالكائن العضوى يصبح روحا (٢٠٤) ، تحكمه حتمية اجتماعية . ويحاول دوركيم تحديد الوزن الحقيقى للحتمية البيلوجية الى جانب الحتمية الاجتماعية باعتبار ان الانسان فى جانب منه كائن عضوى بيلوجى . فى اطار ذلك يؤكد دوركيم ان الأصول البيولوجية لا تحدد المهنة الخاصة بالفرد ، حيث لايحدد التكوين البيلوجى سلفا الدور الذى عليه ان يقوم به بالضرورة ، والدور الآخر الذى يعجز عنه . ويؤكد دوركيم ان الوراثة تمد الانسان ببعض الاستعدادات العامة والطبيعية والتى فى الامكان ان تتخذ أشكالا مختلفة (٢٠٥) . ثم يؤكد ان انجاز الانسان لسلوك معين أو أداءه لدور محدد يقود الى تخصيص بنائه البيلوجى . حيث ان الانسان لا يستطيع ان يقوى من قدراته التفكيرية أو التحليلية الى درجة عالية بدون اضعاف ارادته وحيوية عاطفته (٢٠٦) . وكأنه بذلك يؤكد ان الحتمية الاجتماعية ذاتها تتحول لكى تشكل ماهو بيلوجى وفطرى وفقا لمتطلباتها الأساسية ، ويعبر دوركيم بذلك عن موقف حتمى متطرف فى مواجهة الحتميات الأخرى .

ويشير تالكوت بارسونز الى أن قول دوركيم بالحتمية الاجتماعية كان قولا متدرجاً فى استراتيجيته ، اذ نجده قد بدأ ناقدا ومفندا لكل العناصر المفسرة للواقعة الاجتماعية أو السلوك الاجتماعى والتى يمكن ارجاعها للوارثة والبيئة غير الاجتماعية – بالمعنى التحليلى – تلك التى تعقد الموقف التفسيرى . ويؤكد بارسونز ان الظروف البيئية والعنصر الوراثى فى الطبيعة البشرية هى أشياء are choses بالمعنى الدوركيمى ، وهى خارجية بالنسبة للانسان ومن ثم فلها قهرها عليه ، ومن ثم فعلى الفرد ان يعطيها اعتبارا اذا اراد أن يكون عقلانيا فى سلوكه . حينئذ يكون العنصر الاجتماعى فى اطار ذلك مجرد عنصر أو مقولة راسبة residual cat-igory ، حيث مقولة الأشياء التى لايمكن ارجاعها الى اعتبارات الوراثة أو البيئة غير الاجتماعية . والى جانب هذا التحديد السلبى للعنصر الاجتماعى ، نجده قد أضاف محكا ايجابيا ، حيث هو العنصر الذى يمكن نسبته تحليليا لحقيقة ان الفرد يدخل فى علاقات اجتماعية مع البشر الآخرين ، وبالطبع تنتفى فاعلية هذا العنصر بالنسبة للفرد المنعزل تحليليا

. هذا وقد تمثلت القضية الرئيسية فى هذه المرحلة فى الانتقال الى التحديد الايجابى لعنصر تتوفر فيه محكات الخارجية والقهر ، وفى ذات الوقت لايرد الى اعتبارات الوراثة أو البيئة غير الاجتماعية . ولقد تيسر مفتاح ذلك فى اطار تحديد شئ ما يتعلق بحقيقة ترابط أى تجمع الأفراد فى نسق من العلاقات الاجتماعية ، بحيث يشكل هذا المفتاح أو الحل clue أساس محاولة دوركيم لتحديد الخط الاجتماعى ايجابيا وليس سلبيا من حيث كونه راسبا فقط (٢٠٧) .

ولتحديد العنصر الاجتماعى نجد ان دوركيم يؤكد أنه اذا كان السلوك الفردى تفسره النظريات الذرية بالنظر الى البيئة أو الوراثة ، فان الهوية الجديدة التى يمكن أن تتألف من جمع من الأفراد ، ومن ثم يكون لها خواصها الجديدة والمتميزة يمكن ان تشكل عنصرا مفسرا لا تتيحه النظريات الذرية ، وهو العنصر الاجتماعى ، باعتبار ان الحقائق الاجتماعية مفسرة لذاتها (٢٠٨) . ومن ثم يصبح هذا العنصر الجديد مفسرا لحقائق تتعلق بالسلوك وتعجز عن تفسيرها العناصر المنطلقة من النظريات الذرية .

وبدون اعتبار الى المناقشات الاصطلاحية فاننا نجد ان دوركيم يطلق على هذا لعنصر الضمير الجمعى . ويؤكد دوركيم على فاعلية العنصر الاجتماعى فى تحتيم السلوك البشرى مادام الآخر يتحدد أو يتحتم بواسطة الضمير الجمعى The Conscience collective وليس الضمير الفردى The conscience individual (٢٠٩) . حيث يعرف الضمير الجمعى على أنه يتكون أساسا من كيان من العواطف والمعتقدات المشتركة بين أعضاء المجتمع . وفى استخدامه على المستوى الامبيريقى فان الطبع الأخلاقى لهذه المعتقدات والعواطف يكون واضحا بقوة .. ويمكن ترجمة المصطلح الفرنسى conscience الى الضمير Conscience بالانجليزية وليس الوعى Consciousness . ويؤكد دوركيم أن الضمير الجمعى يتكون أساسا من التصورات الجمعية . فى اطار ذلك نجد ان السلوك يتحتم بواسطة عملية عقلانية – من خلال حقائق العالم الخارجى – مماثلة للوراثة والبيئة ، التى اذا حللت من وجهة النظر الذاتية تبدو كما لو أنها محتمة بتصورات الانسان المتعلقة بالعالم الخارجى (٢١٠) . ومن ثم ينظر الى الانسان على أنه يتحدد أو يتحتم بواسطة العامل الاجتماعى من خلال معرفة البشر العقلانية والصادقة علميا فيما يتعلق بواقعهم الاجتماعى أو الحقيقة الاجتماعية Social reality (٢١١) .

أما فيما يتعلق بتشكيل الضمير الجمعى كعامل مفسر للسلوك الاجتماعى ، فنجد أن دوركيم يذهب الى القول بانه يتشكل من مجموعة الحقائق والظواهر والتجليات الجمعية

والاجتماعية ، وهى أساسا نتاج لاجتماع البشر وارهاصاتهم الفردية ، حيث تصبح هذه الحقائق أو الظواهر مجموعة من لمدركات الجانبية والفردية والمتباينة . حيث كل ادراك فيه بعض جوانب الصحة والخطأ ، إلا أنها فى قلب التجمع تتجمع وتتراكم وتصحح بعضها بعضا ، ويخرج النتاج واقعا أو حقيقة أسمى من مكوناتها ، قد تحمل اسهام كل منها لكنها ليست أيا منها (٢١٢) ، واختلاف هذا الناتج عن مكوناته يماثل اختلاف الماء مثلا عن مكوناته الأساسية التى هى الايدروجين والأكسجين فى كل الصفات (٢١٣) . ذلك لأن هناك عنصرا مضافا وهو الامتزاج أو التفاعل بين هذه العناصر الفردية .

ويذهب نيقولا تيماشيف الى ان تشكل الضمير الجمعى قد مر بمرحلتين عند إميل دوركيم . الأولى وبخاصة فى كتابه تقسيم العمل الاجتماعى حيث كان يتكون من التصورات والعواصف المشتركة بين الأفراد الذين يكونون غالبية المجتمع . ومن ثم فهو ناتج عن التماثل بينهم . بينما فى كتابه قواعد المنهج الاجتماعى – حيث المرحلة الثانية – يؤكد ان الضمير الجمعى بظواهره العديدة يمارس ضغطا على الأفراد بحيث يكون من نتيجة هذا الضغط الذى يمارسه الضمير الجمعى على كل منهما توليد نوع من التماثل العقلى والعاطفى بين الأفراد (٢١٤) . حيث تتوافر له فى المرحلة الثانية خاصيتان ، الأولى انه سابق عليهم وخارج عنهم ، بمعنى انه موجود قبلهم وله خصائصه الكلية الخارجية وليست المستنبطة من الذوات الفردية ، ومن ثم فهو يعتبر قوة خارجة عن الفرد تمده بكافة الأساليب والوسائل التى تمكنه من قيادة التفاعل الاجتماعى وممارسته ، ومن ثم فلابد ان تتوفر لهذا الضمير خواص القهر والالزام (٢١٥) . وهى الخاصية الثانية .

ويكتنف تحليل الضمير الجمعى عن تضمنه لعناصر عديدة مكونة . ويعتبر العنصر المعيارى أهم مكونات الضمير الجمعى وهو الذى يتمثل فى القيم المجتمعية المشتركة تلك التى تشكل العنصر المحورى (٢١٦) فى البناء أو الموقف الاجتماعى . هذه القيم أو المثل على مايذهب تمياشيف ليست إلا انعكاسا لتفاعلات تجرى فى الواقع بحيث تنفصل عن المستوى السيكولوجى وتنتقل لتصبح متموضعة على المستوى السوسيولوجى . حيث نجد ان كافة أنساق المجتمع الأساسية كالدين والأخلاق والاقتصاد ليست فى جوهرها إلا أنساق قيم ومثاليات (٢١٧) .

وتعتبر الظواهر الاجتماعية هى المكون الآخر للضمير الجمعى ، حيث يرجع دوركيم ظواهر الدين واللغة والحرية الى أساسها الاجتماعى وكذا الفردية والانتحار والجريمة (٢١٨) .

ويؤكد دوركيم أنه لكى يحكم الضمير الجمعى سلوك الانسان فانه يتولى صياغة الأخير وتشكيله منذ البداية . فمنالطبيعى كل سياق اجتماعى ان يحاول تشكيل الفرد على صورته وفى هذا الاطار فان الآباء والمعلمين ليسوا سوى وسائل أو ممثلين (٢١٩) . ثم يؤكد ان جهد التربوية يتجه لغرس أساليب الرؤية والشعور والسلوك لدى الطفل الذى لايمكنه الوصول اليها بشكل تلقائى ، فجوهر عملية التربية اذن هى تطبيع أو تنشئة الكائن البشرى (٢٢٠) . ومن ثم فاذا كان الضمير الجمعى سابقا فى وجوده على الضمير الفردى ويحتوى على عناصر أخرى كثيرة ، فانه من المنطقى ان نتفق مع دوركيم فى ان السبب الحتمى لأى حقيقة اجتماعية ينبغى البحث عنها فى الحقائق الاجتماعية السابقة عليها وليس بين حالات الشعور الفردى (٢٢١) .

ذلك يعنى خضوع الأفراد للحتمية الاجتماعية .. فالقوانين الاجتماعية تحكم البشر وفقا لضرورة حتيمة مطلقة ، وكل ما فى استطاعة البشر فعله هو ان يخضعوا لها ، وان أكبر ما يأمله أفضل البشر هو أن يكتشفوا مسار واتجاه هذه القوانين وذلك من أجل التكيف معها بأقل ألم ممكن (٢٢٢) . وهنا نجد أن دوركيم يعيد نفس التأكيد الهيجلى على حتمية العقل أو الوعى الشامل حينما أكد ان العظماء يكتسبون عظمتهم هذه عن طريق الاتساق أو الخضوع للفكرة الشاملة ، والعقل الكونى على نحو ما أشرنا سابقا .

ويحاول دوركيم ان يمنح الحتمية الاجتماعية ذات الصرامة التى للحتمية الطبيعية ، فيؤكد ان المجتمع يتملك الفرد ، حيث لايستطيع الأخير بدون الأول أن يحقق طبيعته ، وان قدرته على التحرر من القيود المفروضة عليه نتيجة لاشتراكه فى العالم الاجتماعى ليست أكثر من قدرته على الهروب من العالم الطبيعى (٢٢٣) . وتتأكد قمة التحتيم الاجتماعى للسلوك الفردى حينما يذهب دوركيم الى القول بأن للضمير الجمعى حاجات لابد ان تشبعها الوحدات الفردية المكونة . يؤكد ذلك مايذهب اليه ألبرت بيرس بقوله بأن الحاجات الفردية التى قد نلاحظها فى السلوك الظاهرى للأفراد ان هى فى أساسها إلا حاجات اجتماعية (٢٢٤) . انها حاجات وغايات طرحها الضمير الجمعى وعلى الوحدات المكونة اشباعها أو انجازها ، حتى تتحقق قدرة الضمير الجمعى وخضوع الأفراد لمتطلباته .